صفحة من تاريخ

الرهبانية الباسيلية الشويرية

بقلم الاب اثناسيوس حاج ق. ب.
مدبر الدروس في المدرسة الاكليريكية

ان لهذه الرهبانية الكريمة ، كما لسائر الرهبانيات القديمة ، تاريخاً جمع بين الاعمال المجيدة التي اتتها ، والاضطهادات المؤلمة العديدة التي انتابتها ، فكان كحقل نبتت فيه الزهور الجميلة ، على ما رمت فيه الايدي المفسدة من الاشواك الوبيلة . ولها ايام مجد وصفاء ، كما ان لها ايام يؤس وعناء.

١ تأسيس الرهبانية

هناك على مرتفع صخري مطل على البحر ، جنوب مدينة طرابلس الشرقي ، امام غابة من السنديان ، يقوم دير البلمند . وهو دير قديم ابتناه سنة ١١٥٧ رهبان القديس برنردس الستريسيون ، كما بيّنه بالادلة الدامغة المؤرخ المدقق الاب لامنس اليسوعي ، والعالم الافرنسي انلار . وان كان احد لم يزل في شك من هذا القبيل ، فليستنطق اسم الدير ، بل حجارته وهندسته ، تجبه عن اصله باجلى بيان.

على انه مهما كان من امر تأسيسه وتطوّره على تعاقب الاجيال ، وانتقاله من اللاتين الى اليعاقبة ، ثم الى الروم الملكيين ، فان ما يهم البحث عنه باختصار في مقدمة هذه الحالة هو حالة دير البلمند في اواخر القرن السابع عشر وبدء الثامن عشر . فلقد حدث آنئذٍ بين جدرانه امر ذو بال.

ان رهبان البلمند كانوا حوالي سنة ١٦٩٤ ارثوذكسيين . وقد يدل على ذلك بعض الدلالة صورة كبيرة في كنيسة الدير تمثل الدينونة والجحيم والنعيم بيد انها لا تمثل المطهر ، وقد كتب في اسفلها هذه العبارة :

« في رئاسة الاب المكرم الخوري فرح صورها . . . . سنة ١٦٩٤ »

ان نقل عن هذا الدير انه كان ارثوذكسياً فاننا لا ننفي وجود بعض رهبان كاثوليكيين . لان الانفصال التام ما بين الطائفتين لم يكن قد تمّ بعد وكان الفريقان مشتركين لا يكادان يريان اختلافاً ما في ان يكون الواحد خاضعاً لرومة ، والآخر غير خاضع . ناهيك ان المرسلين اليسوعيين ، الذين كانوا في طرابلس ، لم يتوانوا في ايصال تعاليمهم الى قلب الدير المذكور . فقد ورد في ما يسونه (*Lettres édifiantes t. I. p 129-130*) ان تلميذين من تلامذتهم دخلا دير البلمند لاعتناق الحياة الرهبانية . فمن ثم تمنّى للاب فرسو ان يتردد على الدير ويخاطب رهبانه ، رأساً وبواسطة تلميذيه ، عن الاتحاد برومة الى ان فاز بالمرغوب . يؤيد هذا الاتحاد الرسالة القديمة التي نشرها في مشرق سنة ١٩٣٠ صفحة ٢١٥ ، المؤرخ البحّاثة الاب قسطنطين الباشا ، وقد وجهها بعض رهبان البلمند الى الحبر الاعظم سنة ١٧٠٤.

فهذا الدير الذي غدا كاثوليكي المعتقد ، بقي كذلك حتى بعد سنة ١٧٢٥ . يشهد على ذلك اولاً ما ورد في سجل الرهبانية الشويرية القديم ، صفحة ٩ ، من ان المطران جراسيموس ، اسقف حلب ، هرب سنة ١٧٢٢ من وجه الروم فالتجأ بدير البلمند . وثانياً ما جاء في مجموعة رباط التي اشار اليها الاب توتل اليسوعي في مقالته المستفة على دير البلمند ، اي ان قنصل حلب الافرنسي كتب الى وزير فرنسة ما معناه : ان البطريرك سلفسترس وصل من القسطنطينية الى حلب في ٩ ت ٢ سنة ١٧٢٥ ورشق بالحرومات اربعة كهنة كاثوليكيين وكل دير البلمند[1].

على انه لم يلبث طويلاً حتى انفصل رهبان الدير المذكور عن رومة ، ولعل ذلك الانفصال قد ابتدأ سنة ١٧٣٣ اذ حضر سلفسترس الى طرابلس واخذ . . [2]

هذه اللمحة كافية لان ترينا السرّ في نزوح بعض رهبان البلمند وتأسيسهم الرهبانية الشويرية ، فمن ثمّ اذ لمع سراج النقمة على رأس الابوين البارين وهما الخوري جراسيموس والخوري سليمان الراهبان الحلبيان من رهبان دير سيدة

١) انظر ايضاً سجل الرهبانية صفحة ١٧

٢) انظر سجل الرهبانية ، ص ٥٦

البلمند ... فتعاقدا اليمين مع سبعة اتقار من اخوتهم ... بان يبارحوا الدير وينصبوا الى مكان يرفعون فيه اعلام قانون الرهبانية المقدس الذي خمد لهيبه في هذه البلاد ... وكان ذلك سنة ١٦٩٧ »[1].

اجل ان دير البلمند هذا بعد ان كان جنة من جنان الكنيسة الزاهرة بالفضائل الرهبانية ، آلت احواله الى الفتور والانفصال ، الى ان هبت روح الحياة الكاثوليكية في صدور البعض من ابنائه فتركوا رفاقهم وطلبوا مكاناً آخر يعيشون فيه بحياة رهبانية وكاثوليكية معاً.

ولما كانت غايتهم تاسيس دير خاص بهم ، وسن قانون جديد ، رأوا ان يستطلعوا رأي البطريرك كيرلس الخامس الانطاكي الكاثوليكي ، ويستأذنوه بذلك ؛ فارسلوا له اثنين منهم ، هما الابوان جراسيموس وسليمان الراهبان الحلبيان ، وبعثوا اليه معهما بقانون مؤلف من ١٥ باباً ليثبته لهم فيباركوا عليه ، وكان ذلك سنة ١٦٩٧ . فلما وقف البطريرك على قصدهم المقدس توسم فيه خيراً كبيراً ، فباركهم وشجعهم وثبت قانونهم . فذهبوا من ثم يفتشون عن مكان تصلح فيه الحياة الرهبانية . وبعد البحث الطويل لم يروا افضل من ضواحي الشوير ، فحلوا ضيوفاً كراماً على كاهن مقيم بين الشوير وبتغرين ، في غرفة محاذية لكنيسة قديمة على اسم القديس يوحنا الصابغ ؛ فعاشوا هناك بالبر والقداسة ، ونالوا حظوة كبيرة في عيني الامير فخر ، وهو من الامراء اللمعيين الذين كانوا يلون على المتن تحت اشراف الامير الاكبر حاكم لبنان حيدر الشهابي . فهذا الامير باعهم مزرعة « بيت عيال » ووعدهم ان يحمي ذمارهم.

اما هم فلما استتب بهم المكان اقاموا عليهم رئيساً ، وعاشوا بالعفة والفقر والطاعة ، الحصون الثلاثة للحياة الرهبانية . ومنذئذ اخذ يتوارد عليهم طلاب الكمال من كل صوب.

وفي سنة ١٧٢٠ كان عدد الرهبان قد بلغ الثلاثين ، فعقدوا مجمعاً عاماً ، هو الاول ، فاقيم فيه رئيس عام ومدبرون اربعة . وفي السنة التالية اثبت مجمع المدبرين النذور الثلاثة ، وابرزوها جميعهم باحتفال مهيب.

---

١) كذا في سجل الرهبانية ، في الفاتحة.

٢ نمو الرهبانية

ولم تكن سنة ١٧٢٢ حتى ذاع خبر إنشاء الرهبانية في كل ناحية ، واخذ بعض آبائها يقومون بالرسالات المقدسة في جهات مختلفة كحمص وحماه وبعلبك . فكان جميع الناس من اكليروس وعلمانيين يطمحون بابصارهم وبقلوبهم الى الرهبانية الجديدة التي غدت كسراج يضيء في ظلام الليل ، فكنت تراها على حداثة عهدها تنمو بسرعة عجيبة لان اصبع الله كانت فيها . واذا باهل رأس بعلبك يلتمسون من الرهبانية ان تستولي على دير سيدة الراس ، وبدير مار اشعياء يطلب الانضمام اليها . فسبحان من يجعل من الحبة الصغيرة شجرة كبيرة باسقة الاغصان .

٣ الاضطهادات والنكبات

بينا الرهبانية تنمو كالوردة في ريعانها ، اذا بسيف الاضطهاد وقد استله الشيطان ليقتطعها من بستان الكنيسة .

ففي سنة ١٧٢٤ مات البطريرك اثناسيوس دبّاس الانطاكي ، فاجتمع الاساقفة واقاموا خلفاً له كيرلّس طاناس السادس . اما الروم في الاستانة فقد ساموا سلفسترس بطريركاً ليكون خليفة لاثناسيوس . فاخذ سلفسترس من ثم يسعى بكل قوته في حطّ كيرلّس عن كرسيه ، ونفي الاساقفة الكاثوليكيين اعوانه ، وطرح الكهنة المنتمين اليه في السجون .

فهؤلاء لم يروا ملاذاً لهم آمن من اديار الرهبان في لبنان ، فعاذوا بها . ومن ثمّ تحوّل سخط البطريرك ووكيله على الرهبانية ، وبنوع خاص على رهبان دير سيدة الراس ؛ ونال من محافظ الشام الامر بالقبض على بعض كهنة الدير الذين كان حانقاً عليهم . فلما شعر رهبان الدير بوصول الجنود ، فرّ المغضب عليهم الى المغاور والجبال ، وكان رفاقهم يقدمون لهم الطعام خلسة تحت جنح الظلام . ولم يلبث هؤلاء ايضاً ان تركوا الدير واعتصموا بالجبال[1] .

---

١) سجلّ الرهبانية ص ١٤

وكان اذ ذاك وقت الشتاء ، فقاسوا عذاباً شديداً من الجوع والبرد القارس ، وبقوا اياماً تائهين بين الثلوج ؛ ولم يعودوا الا يوم السبت العظيم ، فاختبأوا في قرية الراس الى ان انتصف الليل ، فذهبوا جميعاً الى الدير حيث تلوا القرض الالهي ، وقدموا الذبيحة ، ووزعوا الاسرار على الشعب . وبعد ذلك تفرقوا واختبأوا الى ان تيسر لهم الفرار ، فاتوا الى دير مار يوحنا الصابغ ، بعد ان قاسوا على الطريق من اهوال الامطار والثلوج وآلام التعب والجوع ما يشيب الاطفال . وكانوا في كل ذلك يسبحون الله شأن الانام القديسين .

اما الشيطان فلم يكتف بهذا القدر من الاضطهاد ، بل اراد ان يتتبع الرهبانية في كل اين وآن ليبيدها بالكلية ؛ ومن ثمّ نراه قد نقل مسرح اضطهاداته الى دير مار يوحنا الصابغ .

ان بعضاً من اعداء رهبان مار يوحنا اغروا الامير نجماً بثلاثمائة غرش لكي يخرج الرهبان من الدير ويجعله في ايديهم . فدفع الغرور هذا الامير الى استدعاء الرئيس العام وتهديده باخراجه من الدير عنوة ، ان لم يدفع القيمة . فوعده بدفع مائتين وخمسين غرشاً . فلما علم الاعداء بذلك ، وعدوا الامير نجماً بدفع ضعف القيمة . فبلغ الرهبان خبر هذه المؤامرة ، فالتجأوا الى آل خازن طالبين وساطتهم . واما هؤلاء فهبّوا لنصرة الرهبان واطلعوا الامير الاكبر (حيدر الشهابي) على دخيلة الامر ، فارسل فلام الامير نجماً لوماً شديداً . ومذ ذاك اخذ الامير نجم يزداد حقده الى ان اتيح له سنة ١٧٢٨ فهيّج بعض المشاغبين على الرهبان ، وهكذا اضطرهم ان يخرجوا من ديري مار يوحنا ومار الياس شويا فاخلوهما ولجأوا الى دير مار اشعياء . اما دير مار الياس شويا فقد بقي في ايدي الاعداء حتى ٢٣ ت ١ سنة ١٧٢٩ ، يوم انسلخ مع المحيدثة عن سلطة الامير نجم ليدخل تحت حكم الامير عساف ، الذي استدعى حالاً الرئيس العام وسلمه الدير بما فيه . فعاد الرئيس العام ، الخوري نيقولاوس الصائغ ، برهبانه الى الدير حيث وجدوا الدّ خصومهم باقياً فيه . فلم يدعوه يمضي ، بل ابقوه عندهم على الرحب والسعة ، شأن المسيحي الحقيقي الذي يقابل الشر بالخير . واما دير مار يوحنا فقد ارجع الى الرهبانية سنة ١٧٣١ ، بعد ان

بقي فيه الاعداء ستين وتسعة اشهر . وهكذا خرجت الرهبانية من هذه المعركة وكثير غيرها ظافرة قوية.

٤ الرهبانية والاديار الرومانيون

لا يخفى ما للاحبار الرومانيين من العطف الابوي الجزيل على الشرقيين والعناية بهم وبشؤونهم. فلقد قدروا الرهبانية حق قدرها فحوطوها ، منذ اول عهدها ، بعناية خاصة لتوسعهم فيها عوداً للكنيسة قوياً في بلاد سورية. ولا عجب فان الرهبانيات في الكنيسة بمثابة الجيوش المنظمة في الممالك ، تذود عنها ، وتمد سيطرتها الى جميع الاقطار.

ففي سنة ١٧٤٣ كتب الكردينال بيترا ، وكيل المجمع المقدس ، والمونسنيور السمعاني ، للرئيس العام كتباً يمتدحان فيها امتداحاً جزيلاً الرهبانية ، وحفظها الايمان والفروض المأمور بها في المناشير الرسولية . وعربوناً لرضى الكرسي الرسولي عنها ، قد وهبها البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٩ دير سيدة السفينة في رومية . فعظم جلال الكرسي الرسولي للرهبانية يُعرف من عظم هذه الهبة . فان كنيسة سيدة السفينة هي من الآثار التاريخية الجليلة جداً ، كانت على عهد يوليوس قيصر منزلاً للغرباء ، ثم تحولت في الجيل الثاني بعد المسيح الى ملجأ للمسيحيين وهبتهم اياه الملكة دوميتيكة زوجة الملك ، ليجدوا فيه معتصماً وقت الحاجة ، ولذا سمي وقتئذٍ ملجأ الخلاص الى ان تحوّل الى كنيسة للسيدة على عهد قسطنطين الكبير ، فدعي كنيسة سيدة السفينة من باب التورية . اما التصاوير والنقوش والفسيفساء التي فيها فهي غاية في القدم والابداع.

ولقد اعرب الكرسي الرسولي فيما بعد عن جزيل اعتباره للرهبانية وعطفه عليها بشهادات جمة ، بينها ما ورد في مقدمة الفرائض التي كتبها السمعاني مبيناً فيها رضى رومة عنها:

« فدت هذه الكرمة المباركة [الرهبانية الشويرية] قضبانها الى البحر والى الانهار فروعها ، اذ انتشرت ليس بديورتها فقط بل بفضائل ابنائها ايضاً...»

وما اجمل التشابيه التي شبّه بها البابوات الرهبانية . فتارة يرون فيها وردة بين الاشواك ، وتارة يشبهون اولادهـا بنجوم منيرة في الظلام . قال البـابا بناديكتوس الرابع عشر في براءة ارسلها الى الرئيس العام والرهبان عموماً :

« بما ان الكردينال فرتوناطوس قد امتدح الفرائض واعتبرها مستحقة التثبيت ببراءة رسولية فنحن بالحنو والسلطان الجبريين لم نأنف تمام ذلك . وبما انكم ايها الاولاد الاحبـاء ، انتم وبقية الشعوب الارثوذكسيين الخاضعين لهـذا الكرسي المقدس ، قائمون في بلاد سورية كنجوم منيرة بين ظلمات غير المؤمنين والاراتقة ، فاجتهدوا دائماً في ان تتردّوا نوراً جديداً وتقدموا انواراً متقدة لاولئك الذين لا يشاهدون نور الحق . »

ومنها ما ورد في منشور التثبيت الذي ابرزه البابا بناديكتوس الرابع عشر في ١١ حزيران سنة ١٧٥٧ وفيه :

« . . . ان سالفنا السعيد الذكر اكليمنضوس الثاني عشر جزا عن خضوعهم وانتمائهم وطاعتهم للكرسي الرسولي ونظراً للايمـان الارثوذكسي الرومـاني الذي يتمسكون بـه ويحفظونه بغير انثلام ما بين الاراتقـة وغير المؤمنين والمشاقين المحيطين بهم . . . قد منح رهبان الجمعية المذكورة كنيسة القديسة مريم ايندومنيكا الملقبة عموماً بكنيسة السفينة . . . بموجب هذه البراءة نقبل ونثبت بالسلطان الرسولي الفرائض المذكورة ونضع عليها تمكين قوة الثبـات الرسولي غير المتحل . »

وهناك ايضاً المناشير التي ارسلها الحبر الاعظم الى جميع الاساقفة والبطاركة السوريين ، واوصاهم فيها بالرهبان توصية الاب الحنون ببنيه الاعزاء ، ومناشير الانعامات التي منحها للرهبانية من مثل الغفرانات الكاملة وغيرها .

« ولان محبتنا ترمي الى نموّ عبادة المؤمنين . . . فنسمح بالرب غفراناً كاملاً لكل المؤمنين الذين يزورون بعبادة كنائس رهبان وراهبات الروم الملكيين الباسيليين من مجمع مار يوحنا الصابغ وذلك في الاعياد الآتية الخ . »

كل هذا قليل من كثير الادلة على فضل الاحبار الرومانيين وسمو منزلة الرهبانية في اعينهم .

(للبحث صلة)